العبر مناهجية

Transdisciplinarity

مدخل

حفل العقد الأخير من القرن العشرين بالعديد من المراجعات الجادة على المستويين الفلسفي والعلمي، لكثير من النظريات التي كانت تؤطر الإنسان، وتتحكم في مسار الحضارة الإنسانية. وخلاصة هذه المراجعات التي اتسم أغلبها بالتشاؤم أن العلم – Science تحول إلى مؤسسة دينية بفعل النزعة "العلومية" – Scientisme التي تقمصت دور الدين، وجعلت من نفسها مصدرًا وحيدًا للمعرفة، وهو ما يهدد البشرية بالفناء.

وحسب "هنري بورتوفت": "فإن العلم ليس فعالية مستقلة تقف خارج التاريخ. يمكن أن يكون العلم صحيحًا، لكنه ليس معصومًا. فإذا تحرر العلم من النزعة العلومية الدوجماطيقية، وإذا تجلت الطبيعة بطرق مختلفة، ثمة عندئذٍ إمكانية لنوع آخر من العلم، يتكامل مع العلم السائد حاليًا"(١).

وقد سبق وأن نبه "برنارد شو" إلى أننا استبدلنا بعقيدة الدين عقيدة العلم، منذ ديكارت في القرن السابع عشر، ومن يجرؤ على معارضة عقيدة العلم، فسيحرق على خازوق مثلما أحرق "جيوردانو برونو" قبل أربعة قرون.

وذهب "كارل بوبر" إلى أبعد مما قاله "برتر اند رسل" ، حين أكد على أننا : "أصبحنا مهرة، ربما أمهر من اللازم، أما فيما يتعلق بالأخلاقيات فلسنا كما يجب؛ من سوء حظنا أنه قد تطور ذكاؤنا أسرع من ضميرنا الأخلاقي. كان لدينا من المهارة ما يكفي لصناعة القنابل الذرية والهيدروجينية، ولكننا من الناحية الأخلاقية لم نكن قد نضجنا بعد لنقيم الدولة العالمية، وهي وحدها التي يمكن أن تحمينا من حرب تفني كل شيء"(٢).

obeikandl.com

ويسعى موضوع هذا الكراسة والمعنون بـ "العبر مناهجية" Transdisciplinarity إلى الخروج من المأزق الراهن، وهو ليس نوعًا من أنواع اليوتوبيا الجديدة، بقدر ما هو محاولة لمواكبة الثقافة الإنسانية الكوكبية – Globalization الصاعدة، في جوهرها، من خلال إيجاد "معابر" حقيقية بين مختلف مناهج المعرفة الإنسانية (من فلسفة وعلم وفن ودين ... إلخ)، وصولاً إلى معرفة كلية تجتاز هذه المناهج وتشملها في الوقت نفسه، وبذلك تفتح آفاقًا جديدة للوعي في الألفية الثالثة ... إنه باختصار مساهمة جادة في استعادة التوازن المفقود بين العقل الإنساني وتكامل المعرفة ووحدتها(٣).

ففي عام ١٩٩٤ تبنى المشاركون: من فلاسفة وعلماء وأدباء وفنانين، في المؤتمر العالمي الأول لـ "العبر مناهجية" ميثاقًا، يعتبره العديد من الباحثين في العالم اليوم، بمثابة المكافئ لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، في المجال الفكري والروحي، الهدف منه إعطاء توجه مشترك للمناهج، ومركزتها حول حاجات الإنسان وتطلعاته، بتطوير رؤية جديدة للواقع ستصبح قاعدة للعمل الإنساني، في سبيل التحول التدريجي نحو أنموذج جديد – Paradigm ينطوي على مفاهيم وقيم جديدة.

وتتلخص هذه المفاهيم – حسب نيكولسكو – في التحول عن العقلانية المفرطة إلى الحدس والكشف، عن التحليل إلى التركيب، عن الاختزال إلى التكامل، عن التفكير الخطي إلى التفكير اللولبي، عن الإمعان في التخصص إلى اجتياز المناهجية، وعن مراكمة المعلومات إلى المعرفة كوظيفة وجودية. وليس القصد استبدال مفهوم جديد بمفهوم قديم، بقدر ما هو التحول عن التشديد المفرط على أحد المفهومين إلى توازن أعظم بينهما.

إن "العبر مناهجية" تسجل موقفًا بأن العلم اليوم وصل إلى تخوم الميتافيزيقا، وبأن الفيزياء الكوانتية تعيد طرح الأسئلة الوجودية التي يعجز العلم عن الإحاطة بها: من أين جئنا؟ ومن نحن؟ وإلى أين نذهب؟ ... والأسئلة الإبستمولوجية: ما الذي نعرفه؟ وكيف نعرف؟ ... وما طبيعة الفكر اليوم؟ وهي تجسد التيار الجوفي الذي اجتاز النصف الثاني من القرن العشرين، ويرسم معالم الخريطة الفلسفية الجديدة، والتي يتمثل أحد رهاناتها

في ترميم جملة الشبكات التصورية، سواء الخاصة بمختلف المناهج العلمية، أو الخاصة بالجماليات والسياسة والأخلاق.

وهكذا فإن العبر مناهجية هي قلب لـ "المشروع الديكارتي"، بتوحيد المعرفة المجزأة والمقسمة، وهي ضد "الثنائية" – Dualism بين الذات والموضوع، أو تلك المنظومة المعرفية التي ندور في فلكها منذ ما يزيد على ثلاثة قرون، إنها دعوة لبعث القدرة على التفكير التكاملي.

وهي تقودنا إلى التأسيس المنهجي للحوار بين ثقافتي ما بعد الحداثة – Postmodrnism والحقول المعرفية المختلفة؛ إذ إن التنامي غير المسبوق للمعارف في عصرنا يمنح شرعية لمسألة تطويع العقول لهذه المعارف. بيد أن التناغم بين العقول وبين المعارف يفترض سلفًا أن تكون هذه المعارف معقولة، أو قابلة للفهم، ومن هنا يبرز السؤال التالي: هل يمكن للفهم أن يوجد في عصر الانفجار المناهجي والغلو في التخصص في الوقت نفسه؟.

إن محاولة الإجابة عن هذا السؤال، جرت منذ ثلاثة عقود تقريبًا، في مؤلفات مجموعة من الباحثين على اختلاف تخصصاتهم: "جان بياجيه". "إدجار موران"، "اريك نيتش" و "بسراب نيكولسكو". وهذا الأخير يعيد اليوم اكتشاف مصطلح "العبر مناهجية"، وتأصيله كسياق مضاد لفكرة "موت الإنسان" و"نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات"، ومن هنا تكمن أهميته، وأهمية التركيز على مؤلفه الأساسي "العبر مناهجية" في هذه الكراسة.

وبسراب نيكولسكو – Basarab Nicolescu عالم وإبستمولوجي فرنسي من أصل روماني، يشرف على المركز الدولي للأبحاث والدراسات لـ "العبر مناهجية" – Transdisciplinarity[٤] ويعمل في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا ويدرس في جامعة باريس السادسة. له مؤلفات عديدة[٥] تعتبر شهادة حية عن نشاطه، حيث إنه متخصص في دراسة القسيمات الأولية للفيزياء النظرية (الكوانتية)، ومهموم في الوقت نفسه ببحث العلاقة بين العلم والفن والتراث المنقول، وتشييد الجسور بين المناهج وعبرها وما يجتازها، مذكرًا بأن مصطلح "العبر مناهجية" من ابتكار "چان بياجيه" – J. Piget عام ١٩٧٠[٦].

بيد أن "نيكولسكو – يستخدم البادئة اللاتينية – Trans، استخدامًا مراوغًا، وحسب لالاند – Laland: "فإن – Trans وتعني "عبر" (من خلال، فيما يتعدى) بادئة كثيرة الاستعمال لدى الفلاسفة المعاصرين، لابتكار ألفاظ جديدة تقابل مفهومًا بما يتعداه ويتخطاه، وهذا التخطي يمكن فهمه، من جهة أخرى، بمعان شتى"(٧).

وتشير هذه اللفظة عند نيكولسكو إلى ما هو في آن معًا: بين المناهج وعبرها، وفيما يتعدى كل منها على حدة، وغايتها فهم العالم الحاضر، الذي صار فيه توحيد المعرفة الإنسانية إلزامًا يتاخم الضرورة القدرية، وعليه تتوقف نجاة الإنسانية كنوع.

كما أنه يميز بين المعاني التالية: تجاوز" و "خرق" و "عبر" و"من خلال"، ويربط بينها جميعًا في الوقت نفسه، كدلالات متواشجة للفظة – Trans. وعلى سبيل المثال، يستخدم كلمة "خرق" Trans " بالمعنى القانوني والحقوقي عند المشرعين، والتي تشير إلى انتهاك القانون أو النظام، وكأن – Transdisciplinarity تعادل خرقًا معممًا لفتح فضاء غير محدود من الحرية والمعرفة.

وحسب تعبيرنيكولسكو فإن: العبر مناهجية ما كان له أن يتم إلا بفضل وجود المناهج أولاً، وأن البشرية احتاجت قرونًا حتى تراكم من المعارف والمناهج ما يكفي حتى تجتازها" ... وفي موضع آخر يقول: "إنها علم وفن اكتشاف" المعابر" بين الكائنات والأشياء".(٨)

أولاً: تمفصل المناهج وأزمة العلوم الإنسانية:

لا ينفصل تاريخ المعرفة عن المعرفة نفسها. ويشير تاريخ المعرفة إلى أن الحقول المتخصصة من المعرفة Disciplines، أو فروع العلم المختلفة، لم تكن متمايزة كما هو الحال اليوم، إذ كانت أغصانًا في شجرة الفلسفة، وظلت الفلسفة والعلم (المعرفة) مفهومين متداخلين لفترة طويلة. وعندما تمايزت الحقول المعرفية عن الفلسفة بقي لكل علم منها بعد فلسفي يتعلق بطبيعة العلم وبمنهجه وأساليب التحليل النقدي للمعرفة الخاصة به، مثلما بقي لكل علم منها بعد تاريخي يتعلق ببدء المعرفة المتخصصة فيه وجذورها ونشأتها وتطورها.